الأستاذ : د. محمد بك

جامعة باجي مختار – عنابة –

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

المستوى : أولى ماستر

المقياس : العلاقات الجزائرية المغاربية والمشرقية

محاضرة الأسبوع الثاني لشهر ماي2020 م

العلاقات الثقافية الجزائرية والمشرقية

إن العلاقات الدينية والثقافية بين الجزائر والمشرق قديمة ووطيدة ودائمة نتيجة لوجود العتبات المقدسة والمؤسسات الثقافية الفاعلة ، وكان للنخبة المثقفة الجزائرية علماء وطلبة علم دور كبير ومؤثر في ازدهار الحياة الثقافية في المشرق الإسلامي.

علماء الجزائر في المشرق :

علي ولي بن حمزة الجزائري : المعروف بالنسّاب توفي أواخر القرن 16م ، وهو عالم نابغة في علم الرياضيات ، وقد درس في مدينة اسطنبول بفضل إتقانه اللغتين العربية والتركية ، ثم عاد إلى الجزائر ومنها توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وفي مكة كان ابن ولي يعلم الحجاج علم الفرائض والحساب ألف فيها كتابه الرائد في الحساب الموسوم " تحفة الأعداد لذوي الرشد والسداد".

أحمد المقري التلمساني : توفي في 1631م ويعد من أشهر أعلام الجزائر وحفاظها جال المغرب أولا ثم المشرق للحج والمجاورة ، حج المقري خمس مرات وكان كثير التردد خلالها على الشام ومصر فأقام علاقات مع علمائهما كرستها الإجازات والمكاتبات الشعرية والنثرية الوفيرة بينه وبينهم ، وفي المشرق عاش المقري حياة حافلة بالنشاط العقلي وألّف معظم كتبه هناك منها: موسوعته نفح الطيب وفتح المتعال وأزهار الكمامة وإضاءة الدجنة ، وأظهر حفظه الواسع وموهبته الأدبية فوجد تقديرا كبيرا من علماء الشام وغيرهم.وكان من ضمن الذين أجازهم العلامة المقري الشيخ شهاب الدين المصري أحد أجلاء علماء مصر في زمنه والشيخ حنيف الدين بن مرشد مفتي الحنفية بالديار الحجازية والشيخ تاج الدين بن ابراهيم المالكي المكي الخطيب والمدرس بالمسجد الحرام.

عيسى الثعالبي : المتوفي في 1669م وهو أبومهدي عيسى الجعفري الثعالبي الجزائري من أكبر فقهاء المالكية في عصره أصله من نواحي وادي يسر وطن قبيلة الثعالبة درس بالجزائر ثم ارتحل الى تونس ومنها إلى المشرق والحج والمجاورة حتى وفاته ، استقر الثعالبي في مكة المكرمة زمنا طويلا وألف فيها فهرسته كنز الرواة المجموع في درر المجاز ويواقيت المسموع ، وكان يتردد على المدينة من وقت لآخر ويقرئ في

الحرم النبوي حيث مجلسه حافل غاص بأهل العلم ، كما امتلك الثعالبي خزانة هامة للكتب النادرة بمكة المكرمة جعلت بيه مقصدا للطلبة والعلماء.

يحي الشاوي: توفي في 1682م وهو يحي بن محمد بن عيسى بن أبي البركات المليانى الشهير بالشاوي يضرب به المثل في ملازمة الشيوخ وتحصيل العلم ، ورحل مع ركب الحج الجزائري ولما قضى حجه رجع إلى القاهرة مواظبا على التعلم والتعليم واجتمع به فضلاؤها وأخذوا عنه وترقت به الحال فتصدر للإقراء بالأزهر وتولى قضاء المالكية بمصر، وكانت له سفريات الى اسطنبول حاضرة الخلافة وهناك اجتمع عليه الوزراء للتقرب منه والعلماء للبحث والإجازة ، وألف الشيخ الشاوي كتابا في النحو جعله باسم السلطان العثماني محمود الأول أتى فيه بكل غريبة.

عبد العزيز التواتي: توفي أواخر القرن 17م وهو عبد العزيز بن حسن بن عيسى القوراري التواتي من علماء ركب الحج الجزائري المغمورين جال بلاد المغرب وقرأ على كثير من علمائها ثم رحل الى المشرق سنة 1631م ودخل القاهرة ومنحه مقرئها الشيخ سلطان الإجازة لإتقانه علم القراءات وهو من العلماء الذين أغفل مؤرخو الحجاز ذكرهم على الرغم من أنه كان يعد من النابغين في علم القراءات في زمن إقامته بالحجاز.

انتقل الشيخ بعد الحج إلى الطائف ولقيه فيها الرحالة العياشي الذي نزل بداره فيها ووصفه برئيس المقرئين وأستاذ المجودين.

عبد الرحمن الجنتوري : توفي في 1747م وهو أبو زيد عبد الرحمن الجنتوري التواتي من أجلّ علماء في توات التقى أثناء رحلته لأداء الحج بعلماء كثيرين أفادهم واستفاد منهم .

محمد المنور التلمساني : توفي في 1760م وهو محمد بن عبد الله بن أيوب من علماء الحديث الجزائريين ، أخذ عنه مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس عندما التقى به بمناسبة سفره للحج ، كانت له شهرة لا تضاهى في الأزهر الشريف لقدرته على الجمع بين علوم شتى ، فاجتمع عليه خلق كثير من مصر وبلاد أخرى ، اشتهر بمناظراته العلمية.

محمد البليدي : توفي في 1763م وهو محمد بن محمد الشريف البليدي أحد أعيان المالكية بالجامع الأزهر الشريف العامر، ممن استقروا بالمشرق بعد أدائهم الحج عدّه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي من أشيخ الوقت في مصر في القرن 18م مضاهيا بذلك شيوخها الملوي ، الجوهري ، الحفني ، الصعيدي وغيرهم ، ألف الشيخ البليدي في التفسير والقراءات والمنطق وتتلمذ على يديه كثيرون منهم العلامة مرتضى الزبيدي.

عبد الرحمن التنلاني : المتوفى في 1775م وهوأبو زيد عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي من أكثر شيوخ منطقة توات تأليفا ، ذاع صيته في مصر بعد دخوله إليها في رحلة عودة الركب الجزائري ، رغم أنه لم يستقر فيها زمنا طويلا وتوفي بعدها بزمن قليل.

الحسين الورثلاني: المتوفى في 1779م وهو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين صاحب الأسفار والرحلات إلى الحجاز لأداء الحج في ثلاثة مواسم متفرقة من ثلاثة عقود متتالية ، ومن العلماء البارزين الذين التقى بهم أثناء حجه مفتي بلاد الهند الشيخ المحقق محمد أكرم بن الشيخ عبد الرحمن ، وقد اجتمع بطلبة الأزهر مرارا وأعجب بدروسه الشيخ علي الصعيدي.

أبو العباس الصحراوي : توفي في 1788م وهو أبو العباس أحمد الجزائري المعروف في المشرق بأبي العباس المغربي ، وأصله من صحراء الجزائر ذكر الجبرتي:" ... جاور بالحرمين سنة واجتمع بالشيخ أبي الحسن السندي ولازمه في دروسه وباحثه " ثم راج أمره بعد قفوله من الحج لفصاحته وقوة حفظه. أحمد بن عمار: توفي في 1791م وهو أبو العباس أحمد بن عمار مفتي المالكية في الجزائر في عصره من المبدعين القلائل الذين جمعوا بين الفقه والأدب ، وتنقل إلى المشرق عدة مرات فجاور بالحرمين وأقام بمصر وأجاز طلبة كثيرين أشهرهم مفتي الشام في وقته الشيخ المرادي ، وتوفي بالحرمين.

أبوراس الناصري : توفي في 1823م وهو الحافظ أبوراس محمد بن أحمد بن أحمد الناصري المعسكري الراشدي ، وكانت بداية اشتهار أمره من جامع الزيتونة في تونس، لقي جل علماء الحجاز ومصر في رحلتيه إلى الحج وتبادل معهم الإجازات والتقاريظ إنتاجه العلمي وفير بلغ 140 مصنفا في مختلف العلوم.

علي الميلي المغربي : توفي في 1832م وهو الشيخ علي بن محمد الميلي الجزائري المالكي سافر الى الحجاز ثم الى مصر وأضحى من علمائها المحققين ينزل عندهم الأعلام من الحجاج الجزائريين ، استقر بمصر وصار له فيها شأن.

ومن أعلام الركب الجزائري كذلك الذين أشاعت رحلتهم للحج عطاءهم العلمي في بلاد المشرق قاطبة نذكر الأسماء التالية : عبد الرحيم العصنوني التواتي الذي حج في القرن 16م وزار مصر والتقى بكبار علمائها قبل أن يرجع الى بلده. أحمد مقداد البسكري فقيه من بلاد الزاب بقي في مصر لفترة طويلة بعد حجه كان لا يتخلف عن مجالس شيوخ مصر ويجالسهم ويدارسهم. سليمان القشي النقاوسي رحل إلى مصر بقصد الحجاز ، فأقام بها مدة واشتغل بالاقراء مخالطا شيوخها ثم عاد الى الجزائر لاحقا. أبو حسن علي بن ناجي من بلاد الزاب من عائلة ابن ناجي الشهيرة كانت له شهرة ومكانة في المشرق .عبد اللطيف التلمساني المسن الفاضل الذي نزل بمصر بعد الحج بالزاوية الناصرية . أحمد التليلي من شرق الجزائر له يد في العلوم كلها وبصفة خاصة التاريخ والسير. عبد القادر بن السنوسي بن دحو كان عالما عاملا له لكل علم وصول من حديث وفقه ونحو وأصول ، رجل للحج وطلب العلم فطار صيته بمصر حتى صار من نخبة أهل العصر. مصطفى بن المختار الغريسي توفي في رحلة العودة من الحج ببرقة . ويمكن أن نضيف الى أولئك الأعلام المذكورين العشرات من الشيوخ والقضاة والعلماء المتقلدين مهام إمارة ركب الحج.

مجاورة المؤسسات الثقافية والدينية في المشرق:

1- مجاورة جامع الأزهر:

كان الحجاج الجزائريون لا يعدلون بقرب الأزهر مكانا حيث كانوا يقومون كراء الدور والغرف القريبة من الجامع لملاقاة المشايخ ومزاحمة هل المجالس ، فبمجرد وصول الركب إلى القاهرة يطرح الحجاج أمتعتهم بالوكالات المخصصة لذلك مثل وكالتي قايت باي وبولاق ثم يسرعون إلى البحث عن منازل قريبة من الأزهر للكراء ، وفي حالة ما إذا تعذر على الحجاج الجزائريين إيجاد منازل قريبة من الجامع الأزهر ، فإنهم كانوا يحضرون إلى الجامع يوميا ولا يعودون إلى الفنادق محل نزولهم في منطقة بولاق سوى لتحصيل الطعام والشراب ثم يؤوبون إلى الأزهر لتحصيل العلوم والإجازات.

وبما أن مقصد الحجاج الجزائريين في الجامع الأزهر هو رواق المغاربة فلقد أصبح هذا الرواق أوفر عددا وأكثر حركية مقارنة ببقية الأروقة وذلك بسبب توافد الحجاج عليه بأعداد كبيرة ، ويعد أكبر وأقدم رواق في الجامع الأزهر . وطلبة رواق المغاربة فهم تحت رئاسة شيخ الرواق أو وكيله وبدوره تحت رئاسة شيخ المالكية وشيخ المالكية تحت رئاسة شيخ الجامع الأزهر مباشرة. ويعرف وكيل رواق المغاربة باسم النقيب ويتم انتخابه من بين العلماء المغاربة المجاورين به وتحفظ كتب التاريخ أسماء بعض هؤلاء النقباء أو الوكلاء فمنهم الشيخ أبو الحسن الجزائري ، الذي استقبل بعض الحجاج الجزائريين عام 1766م وأعارهم كتاب شرح الشيخ الحطاب على مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي.

ويجذب الأعلام من الحجاج الجزائريين الى رواق المغاربة وجود مكتبة ضخمة من المصنفات الفقهية والأدبية والتاريخية وغيرها بالإضافة الى باعة الكتب المتجولين على غرار أحدهم المشتهر بالدمشقي دلال الكتب، كما كان الحجاج الجزائريون يستأنسون بوجود شيوخ صالحين لهم مكانة في مصر من أمثال الشيخ المتصوف عبد الرحمن البجائي الخلاّدي الملقب بأقطال. من أشهر الأعلام الجزائريين الذين تبوءوا مكانة مرموقة في الأزهر الشريف العالم محمد الأمير المازوني المتوفى في 1817م الذي استقر أسلافه في مصر، فنشأ واشتهر فيها وتمكن من نيل أهم منصب علمي وهو منصب مشيخة السادة المالكية ، وطار صيته في المغرب والشام والعراق.

لقد كان بعض مريدي العلوم من الحجاج ينفصلون عن ركب الحج ، مفضلين مجاورة جامع الأزهر نذكر منهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري مؤسس الطريقة الرحمانية بقي بجواره ثلاثين سنة ، درس خلالها مبادئ الطريقة الخلوتية ، والشيخ علي بن محمد الجزايرلي المعروف بابن الترجمان. وبفضل أركاب الحج المتتالي ورودها على مصر من موسم لآخر تزايد عدد المجاورين بالجامع الأزهر من الطلبة والمشايخ الجزائريين وساهمت كثرة الأوقاف على رواق المغاربة في تيسير أعباء بقائهم في مصر وكان للأثرياء الجزائريين المستقرين في مصر دور في وقف الأملاك على رواق المغاربة وطلبة العلم منهم الحاج شعلان التلمساني.

2- مجاورة الحرمين الشريفين:

ومن أوائل الأعلام المجاورين الشيخ طاهر بن زيان الزواوي الجزائري توفي في 1543م حج ونزل بالمدينة المنورة حيث اشتهر وألف كتابه نزهة المريد في معاني كلمة التوحيد، أما أحمد المقري التلمساني فقد ألف كتبه في السيرة وهو في الحرمين الشريفين ، ومن العلماء في القرن 17م نذكر أبومهدي عيسى الجعفري الثعالبي الجزائري ، الشيخ محمد الفقيه الزواوي ، والحاج علي العنابي ، والشيخ خالد الجعفري المالكي الذي تصدر الإفادة والإقراء ، والشيخ عاشور القسنطيني ، والشيخ إبراهيم بن جلاب الريغي ، والحاج عبد الرحمن الغريسي الجزائري ، وخلال القرن 18م تضاعف نشاط المجاورة ليشمل علماء جزائريين آخرين منهم محمد العنابي فقد كان عالما فاضلا حج وجاور مكة سنة ومات بها في 1728م ، والشيخ محمد بن أحمد الشريف الجزائري توفي بمكة في 1746م ، والقاضي محمد بن عبد الرحمن التلمساني الذي ودع وطنه واستقر في مكة حتى وافته المنية. أما طلبة العلم الفقراء منهم فقد انتفعوا من حلقات الإقراء التي كان أثرياء

مكة يقيمونها في رمضان ومن الزوايا التي أنشأها بعض السلاطين العثمانيين في المدينة المنورة. وكان علماء الجزائر ينطلقون من الحرمين إلى بلاد إسلامية أخرى مثل الشام والعراق لتحقيق أغراض مختلفة.

لقد انعكس التوجه الفكري السائد بالجزائر وغيرها من الأمصار الإسلامية في ذلك العهد على مبتغى الحجاج الجزائريين في إطار رحلتهم المشرقية المقدسة ، فالتأليف أو العلوم التي كان يبتغيها الحجاج ويحرصون على نيل الإجازة فيها لم تكن تخرج عن نطاق فنون الفقه والأصول العقائد والتفسير والقراءات والتاريخ والبيان والحديث والكلام ... وما شابهها من علوم الوقت التي فرضت نفسها فرضا. وبما أن مدينة القاهرة أهم محطات الركب الجزائري ذهابا وإيابا ، فقد كان أعلام الفكر من الحجاج يقصدون علماءها البارزين فيقرؤون عليهم ويطلبون منهم الإجازة ، ومن تلك الأسماء اللامعة المقصودة الشيخ مرتضى الزبيدي الذي توفي في 1790م علم اللغة والنحو والحديث بمصر. وتأتي رواية الحديث في مقدمة الفنون التي كان العلماء الجزائريون يشدون الرحال نحو المشرق من أجل الإجازات فيها وقد أقرّ ابن أبي محلي السجلماسي الساوري بذلك. وتكون إجازات علماء المشرق لمن يطلبها من الطلبة والعلماء مكتوبة بخط يد المجيز رأسا ، وقد يكتفي العالم المجير بأن يأمر أحد تلامذته بكتابتها إملاء لسبب من الأسباب غير أنه في الأخير يختمها هو بخط يده ويطبع بخط يده عليها بطابعه. وفضلا عن الإجازات المخطوطة كان الأعلام من الحجاج الجزائريين يرجعون من رحلتهم ببعض المصنفات في علوم شتّى مثل فتوح البلدان للبلاذري .

وإذا أردنا المفاضلة والمقارنة بين واقع الثقافة في المغرب والمشرق من منظور علماءنا يرى البعض يرى البعض بأن أهل المغرب يفضلون أهل المشرق في تلك الأزمنة بأمرين هما أنهم لا يعرفون تلك الصراعات المذهبية الحادة المنتشرة بالمشرق ، وكذلك أن المناصب الدينية مثل القضاء والفتوى والتدريس والإمامة والخطابة والشهادة لا تباع ولا تشترى بينهم كعادة أهل المشرق. لكن ممارسة الدجل والشعوذة وغيرها من السلوكيات الدنيئة من طرف بعض أهل المغرب جعلت نظرة أهل المشرق للمغاربة عامة تشوبها الحذر والاحتقار. وقد أقر المغاربة بسبق أهل المشرق في بعض الأمور وتمنوا مجاراتهم فيها ، منها الاعتناء بالمساجد وتعظيمها وتزيينها على خلاف أهل المغرب ، كذلك تكريهم للعلماء في حياتهم وبعد وفاتهم .

تأثير الطرق الصوفية :

إن الحجاج والمتصوفة كانوا يغتنمون فرصة دخول القاهرة لزيارة الصالحين فيها الأحياء منهم والميتين وقد عد الرحالة العامري التلمساني أشهرهم فمنهم : الحسان والعارف والشعراني والصحابي وسارية والإمام الشافعي وابن قاسم وأشهب وأصبغ والست نفيسة وابن عطاء الله وأبي جمة والشاطبي وخليل والمنوفي ....، وكان الحجاج الجزائريون يتلقون من أعلام التصوف الذين يقصدونهم في المشرق الأذكار والإجازات ، ويجددون عليهم العهد في الطرق الصوفية المتباينة كل حسب مراده . وبسبب ذلك السياق الصوفي الطاغي امتلأت بلاد الحرمين الشريفين بالمزارات من أضرحة وقباب الأولياء الصالحين القدامى والمحدثين ، الذين أضحى العامة والغوغاء من الناس يغالون في تقديسهم وتنزيههم ، وقد نقل الرحالة الورثلاني مثلا عن أحدهم يدعى سيدي عمر العرابي، ولاحظ بأن غالب السائلين بمكة المكرمة والمستصرخين إنما يهتفون باسمه .

والملاحظ أن كثير من الطرق الصوفية التي وفدت الى الجزائر كان لها وجود وأصل في المشرق العربي مثل القادرية والخلوتية وأثرها على الطرق الصوفية التي نشأت في الجزائر كبيرا وعميقا مثل الطريقة الرحمانية والطريقة التيجانية، كما أن طرق صوفية أخرى كان مؤسسيها وزواياها الأولى في المغرب العربي ثم شهدت انتشارا في بلدان المشرق العربي مثل الطريقة الشاذلية والطريقة السنوسية وغيرها من الطرق الصوفية .